الخطاب وثنائية اللّفظ والمعنى في النّص الأدبـي

Discourse and dual pronunciation and meaning in the linguistictext

د.عبد الكريم محمـودي[1]
جامعة الجزائر2، mahmoudi.abdelkrim80@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019/09/19 تاريخ القبول: 2019/09/24 تاريخ النشر : 2020/03/22

ملخص:

إنّ الخطاب الأدبي هو خطاب مشكلة في نظر المتلقي بكونه شفاف يستوقفك هو بنفسه قبل أن يمكنك من عبوره أو اختراقه هذا عن طريق وضعك كمتلقي في تفسيره و تأويله و إدراك المعاني التي يقصدها المؤلف في هذا الخطاب ، وتأويله يتطلب فك شفراته من لفظ ومعنى ، في هذا البحث نعالج ثنائية اللفّظ و المعنى في الخطاب اللّغوي وعلاقتهما ،و كيفية نقد ثنائية اللّفظ و المعنى.لأن هذه الأخيرة استمر الاهتمام بها في النقد اللغوي الحديث للأدب، باعتبار أنّ النّص لفظ و معنى.

كلمات مفتاحية: الخطاب، اللفظ، المعنى، النّص، اللغة.

Abstract:

The literarydiscourseis a problematic speech in the eyes of the recipient as being transparent stops youhimselfbeforeyoucan cross it or penetratethis by placingyou as a recipient in hisinterpretation and interpretation and the understanding of the meaningsmeant by the author in this speech, and interpretationrequiresdeciphering the word and meaning, in thisResearchWe deal with dual pronunciation and meaning in languagediscourse?And how to criticizebilingualism and meaning

Keywords: Discourse, pronunciation, meaning, text, language.

[1]- **المؤلف المرسل**: عبد الكريم محمودي ، **الإيميل**: mahmoudi.abdelkrim80@gmail.com

المنارة للاستشارات
ww

1-مقدمة:

لعل المشكلة الأساس التي شغلت اهتمام البلاغيين و النقاد و غيرهم من المشتغلين بالتفسير والتأويل هي قضية اللفظ والمعنى، والذي يهمنا من هذه الثنائية هو رصد المجهودات الكثيرة التي بُذلت من أجل لم شتات القضية، ومحاولة عرضها على أساس منهجي واضح و معرفة أثر القرآن الكريم في تطور النقد الأدبي، و العمل على إثبات إعجازه البياني مقارنة بالشعر العربي رغم اختلاف المقاييس بينهما، إذ لكل منهما خصائص ومميزات و أهداف و غاياتفإشكاليةقضية اللفظ و المعنى ظهرت في البداية حول النّص القرآني (الإعجاز) قبل انتقالها إلى النّص الأدبي، السؤال المطروح: هل القرآن الكريم معجز بتأليفألفاظه؟ أم بمعانيه؟ أم بتأليفه ومعانيه معا؟

2- التعريف بالنّقد الأدبي:

تتكوّن جملة(النّقد الأدبي) من كلمتين هما النّقد و الأدب، و يقصد بهذا في نظر بعض الباحثين " الأخذبالمعارف الإنسانية باعتبار طبيعتها ووظائفها تقسّم عادة إلى مجموعتين: هما العلوم والفنون، و من العلوم الرّياضيات، و الجغرافيا والكيمياء و الفيزياء، كما أنّ من الفنون الرّسم والتّصوير و الموسيقى."(1)

فالأدب بهذا المفهوم له معنيان خاص و عام، فالمعنى العام هو كل ما قيل في شتّى ضروب المعرفة، أي أنّ الكتابات التي كتبت في علم الفلك و الفلسفة والعلوم الدّقيقة تُعتبر أدبا بالمفهوم العام، لأنّ الإنسان يتأدّب بها بمعنى يتعلّم منها، وأما المعنى الخاص للأدب" هو الكلام الذي يخرجه الأديب بألفاظه عن معانيها الأصليّة، للدّلالة بها على معان أخرى تُستفاد بالإيحاءات والتّداعي و القرائن، أو بعبارة أخرى هو استغلال الألفاظ على نحو يجعلها بالإيحاء تعطى أقصى ما يمكن أن تعطيه من المعاني، و لكن الأدب ليس نوعا واحدا و إنّما هو أنواع مختلفة بعضها أكثر من الآخر في مدى استغلاله للألفاظ."(2)

و مع ظهور علم الأدب شعرا و نثرا بدأ النقد الأدبي يتطوّر مع مرور الزّمن وكان هذا التّطور يصحب معه فحصا و تدقيقا و نقدا من أجل أن يسير في اتّجاه الموجب، و كانت البدايات الأولى للنّقد الأدبي آراء انطباعيّة حول الأشعار التي تعرض في سوق عكاظ زمن الجاهليّة وتُميّز النّص الجيّد من الرديء، بعدها ازدهر النّقد إلى أن وصل إلى حد النّقد المنهجي الذي أصبح له أسس و معايير نقديّة معروفة و أكثر تطبيقيّة.

المنارة للاستشارات

و من هنا يشتغل النّقد الأدبي انطلاقا من موضوعه الأدب الذي يسبقه وهو محور دراسته فالنّقد ينطلق من الأدب و يرجع إليه بمعنى أنّ النّقد يولّد أدبا آخر انطلاقا من الأدب الأوّل فهو خدمة و تطويرا له، ليس الفائدة من نقده إظهار العيوب و فقط، " فالنّقد هو الذي يستكشف أصالة الأدب أو عدم أصالته، و يميّز بين جيّده ورديئه، و سواء كان النّقد علما أو فنّا فإنه ليس قائما بذاته،وإنّما هو متّصل بالأدب، يستمدّ منه وجوده، ويسير في ظلّه يرصد خطاه واتّجاهاته."[3]

و تؤكّد هذا الطرح الباحثة سعاد بنت فريح بقولها " يرتبط النّص النّقدي ارتباطا تلازما بالنّص الأدبي فالنّقد ليس قائما لذاته، و قد صاحب انتقال الأدب من مرحلة المشافهة إلى مرحلة التّدوين... فهما نصّان يسيران جنبا إلى جنب يدعّمهما غير رافد واحد، بدءا من العصر الجاهلي الذي لم يشهد النّاقد الأدبي المتخصّص، كما شهد الشّاعر المتخصّص الّذي لا عمل له غير قول الشّعر، فالنّقد في تلك المرحلة تأثّريّ انطباعي جزئي إلى حد ما لا يرتكز على أسس عمليّة تحليلية."[4]أي أنّ الأدب و النّقد توأم كل واحد يكمّل الآخرّ، و كل واحد أيضا يحافظ على بقاء و استمرار الآخر فلا يمكن أن نتصوّر أدبا بدون نقد، كما لا يمكن أن يكون هناك نقد بدون أدب.

وظيفة النّقد الأساسيّة هي:" أن ينير سبيل الأدب أمامنا و يغرينا بالسير فيه ويلفتنا إلى ما فيه من جمال لا نستطيع إدراكه بأنفسنا، إنّ معايشتنا لأديب أو شاعر كبير في آثاره الأدبيّة، قد تؤثّر فينا أيضا فتجعلنا مشاركين له في فهمه الأعظم لمعنى الأدب."[5]فالفرق بين قراءة القارئ العادي و النّاقد للأثر الأدبي، هو أنّ الأوّل قد لا يستطيع فك بعض شفرات النّص و فهم جمالياته الغامضة، فخدمة النّاقد و وظيفته أنّه يقدّم إضافات و توضيحات للقارئ لفهم العمل الأدبي أكثر.

فالفرق بين النّاقد و القارئ العادي، هو أنّ النّاقد أعلى مستوى و دراية بعلم الأدب وعلومه و له تجربة ودراية في معيشته و مسايرته لهذا الأدب، فالنّابغة الذبياني لم يكن يحكم بين الشّعراء في الجاهليّة إلا لشيء واحد هو نبوغه في علوم الأدب شعرا و نثرا " والنّاقد على العموم يجب أن يكون ذا حظ كبير من العقل وحظ كبير من الذّوق ويتجادل الباحثون من أجله، هل لا بدّ للنّاقد من معرفة آداب أخرى حتى يمهر فينقد لغة أو ليس بضروري، وعلى كل حال فاطّلاعه على الآداب الأخرى يوسع أفقه و يزيد في تجاربه."[6]

المنارة للاستشارات

فيرى أنّ النّاقد إذا كان عمله مقتصرا على أدب أمّته فقط فإنه يكون ناقصا و مبتورا، لأنّه ينظر بعين واحدة للإبداع الأدبي لكن النّاقد الذي يكون ملّما وله علم و دراية لعدّة آداب مختلفة، فإن نقده في الصّميم وفائدته بدون شك تكون أعظم.

فالمتلقي يحتاج إلى الناقد في فك شفرات النّص و " مهما كان ذكاء القارئ و قدرته على فهم الأدب فإنّه يظل بحاجة إلى معونة النّاقد الذي تهيّأت له كل أدوات النّاقد الحق فعن طريق النّاقد كثيرا ما يعطينا وجهة نظر جديدة تماما، أو يترجم إلى تعبير محدّد واضح بعض إحساساتنا الشّائعة المبهمة، أو يرشدنا إلى جوانب غير منظورة فيما نمرّ به في طريقنا وقد نعرفه معرفة جيّدة."(7)

وفائدة هذا النّاقد بالنّسبة للقارئ لا ينكرها أحد فهو يعينه على إماطة اللّثام عن بعض المعاني ويدعم هذا الرأي عبد العزيز عتيق في قوله" فإنكار فائدة النّقد هو ادّعاء إمّا لأنّه لا يمكن أن يكون هناك أحد أعلم وأعقل منّا، و إمّا بأنّنا لا نستطيع قطّ أن نستفيد بما لفرد آخر من ثقافة أكثر و تجربة أعمق و عقل أعظم."(8) و هذا لا يحصل للإنسان العاقل المتواضع، فمهما كان علمه و مستواه ،يوجد من هو أعلى منه علما و ثقافة و وأدبا وكذلك نقدا.

3- اللفظ و المعنى:

دار حول هذه القضية نقاش كبير بين المتكلّمين والبلاغيين ،فالكثير من قضايا علم الكلام ارتبطت باللفظ و المعنى فكانت الخطابة وسيلتهم الأساسية في الرد على الخصوم من خلال العناية باللفظ و تركيب الكلام، لأن اللغة العربية تملك خصوصية ترجع إلى محددات المعنى وهي (الحركات)،ومكونات اللفظ (الحروف) والوظيفة المنطقية للصورة الصوتيةوهي (الأوزان)،في حين نجد البلاغيين عالجوا النص الأدبي، وخاصّة في العصر الأدبي العبّاسي والّذي عُرف بالعصر الذّهبي عندالعربفي كل المجالات المعرفية، في العلم و الأدب والفلسفة وغيرها.

واهتمّوابالبلاغة وآلياتها في تحليل النّص الأدبي، ومعنى ذلك أنّ النّقد نشأ مع النّص في عصوره الأولى، إلا أنّه كان نقدا انطباعيّا ليس له قواعد و مرتكزات مثلما هو عليه اليوم، لكن النّقد في تلك الفترة بدأ يعالج قضايا أدبية مستجدةكانت في حاجة إلى الدّراسة والتّحليل من بينها: قضيّة الطّبع والصنعة، والسرقات الأدبية، اللّفظ و المعنى،الابتداع(النقلة)والإتباع (الاعتماد)، الصّحة والخطأ... وغيرها من القضايا التي ظهرت في العصر العبّاسي، وكانت له مسارات وخصائصوصولا إلى العصر الحديث بالمناهج النّقدية الحديثة التي استفاد منها النقاد في مقارباتهم.

المنارة للاستشارات
ww

إن النّقد الأدبي بصفة عامّة يتطوّر مع مرور الزّمن و لم يعد النّقاد يكتفون بالإجابة البسيطة السّطحية بل راحوا يبحثون بعمق في قضايا كانت مثار جدل و نقاش، وكانت لها علاقة وثيقة بقضية(اللّفظ و المعنى)، لذلك حُظيت باهتمام كبير من قبل الدّارسين من بينهم: الجاحظ و قدامة بن جعفر، و أبي هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني و ابن رشيق القيرواني وغيرهم. ويمكن القول بأن الجاحظ هو أوّل من عالج هذه الإشكالية و أعطاها دفعة قويّة انطلق منها النّقاد الذين جاؤوا بعده، حيث ربطها بالبيان العربي في مؤلّفه الشّهير" الحيوان" بأن المعاني موجودة في طباع الناس ومتوفرة لهم ،لكن كيف يمكن صياغتها بألفاظ مناسبة لها.

ويمكن الإشارة إلى أنّ قضيّة اللّفظ والمعنى ليست سمة عربيّة قديمة بل نجد لها جذورا في الفكر اليوناني عند أرسطو حيث كان يرى العلاقة بين اللفظ و المعنى هي اصطلاحية عرفية تواضع عليها الناس وعالجها في مقالات (الشعر و الخطاب)، أما أفلاطون فقد عالجها في محاوراته مع أستاذه سقراط، غير أنّ هذه القضية ارتبطت كذلك في الدّراسات النّقدية بالتّأويل وهو أن يكون النّص منفتحا على معان كثيرة.

فالنّص الأدبي خاصة يحتمل عدة تأويلات، بل إن كثرتها تزيد من قيمته و قد يمنح القارئ معان قد لا تخطر حتى على منتج النّص، لذلك نجد أنصار البنيويّة في النّقد الأدبي الحديث ينادون بموت المؤلّف، أي أنّ المتلقّي بحاجة ماسّة إلى النّص فقط و ليس للمؤلف وتبقى قضيّة تفكيك شفرات النّص تدور بين المتلقّي والنّص فيفكّكه وفق ضوابط معينة، و قد تختلف القراءات بين المتلقّين، لكن هذا الاختلاف لا يؤدّي إلى ضرر، بقدر ما يؤدي إلى الاستفادة من هذه القراءات المختلفة و المتنوّعة، و المتكاملة فيما بينها.

فالإنسان يجب أن يتعلّم من غيره إذا كانوا على صواب، و أن يبتعد عن كل حساسيّة تخص العلم أو الأدب بالسير فيه و يلفتنا إلى ما فيه من جمال لا نستطيع إدراكه بأنفسنا.

4- ثنائية اللّفظ و المعنى و نظام الخطاب

إن سبب اهتمام النّقاد و الأدباء بمسألة اللّفظ و المعنى هو تأويل النّص الأدبي فالمؤلّف يصنع النّص ثمّ يترك للمتلقّي، والنّاقد من أجل فك شفراته و بالتّالي تنشأ من خلاله إشكاليات حوله فيما يخصّ الزوج(اللّفظ / المعنى) و الطبع و الصّنعة والسرقات الأدبية، الإبداع و الإتّباع وغيرها و كلّ هذه الدّراسات تؤول إلى فهم الإنتاج الأدبي على أكمل وجه، و تبيّن حقيقته وموضعه في

المنارة للاستشارات

ميزان النّقد الأدبي وأنّ القضيّة الواحدة من هذه القضايا نجدها تفرّعت إلى فروع إشكاليّة ودراسات مثل (الإعراب، دلالة الألفاظ، الصّرف، صيغ الكلمات، نسج الألفاظ وغيرها).

لكن" لم يكن التّأويل هو المحور الوحيد الذي استقطب اهتمام المتكلّمين بالعلاقة بين اللّفظ والمعنى، بل هناك محور آخر جمع بين اهتمام المتكلّمين و البلاغيين، بل البيانيين باختلاف اختصاصاتهم إنّه إعجاز القرآن .... ويمتاز البحث في هذا المحور بكونه جمع بين التيارين الرئيسين في الدّراسات البيانيّة: التّيار الذي عُني خاصّة بوضع قوانين لتفسير الخطاب البياني والتيار الذي عُني بوضع شروط لإنتاج نفس الخطاب."(9)

فالدّراسات التي سلّطت الضوء على النّص القرآني كانت تهدف إلى بيان سرّ الإعجاز القرآني و منه أنتجت مفاهيم و استنتاجات تهدف إلى فهم النّص الأدبي من جهة أخرى تصنع قوانين لمراعاة إنتاج النّص" و كان من نتائج النّظر إلى مسألة الإعجاز من الزاويتين معا أن تحول البحث البياني إلى إشكالية اللّفظ والمعنى من مستوى العلاقة العمودية بينهما(الإعراب والدّلالة على قصد المتكلّم) إلى مستوى العلاقة الأفقيّة بين تراكيب الكلام و صيغ المعاني، بين نظام الخطاب و نظام العقل ممّا كانت نتيجته الكشف بوضوح عن الطّابع الاستدلالي للأساليب البيانيّة للبلاغة العربيّة."(10)

فإشكالية اللّفظ مع معناه تقع في المستوى العمودي و يقصد به مضامين النّص الأدبي، حيث تناوله النّقاد شكليّا وضمنيّا بما فيها علاقة الكلمة بما يجاورها في التّركيب ودراسة المعنى والفرق بينه و بين الدلالة، وهدف المؤلّف من هذا النّص " لأنّ النّقد العربي القديم اهتمّ منذ بدايته بتفسير الخطاب من المتلقّي أو النّاقد، وإن كان بصورة جزئيّة و تمخضّ عن عملية تفسير الخطاب تلك الإشارة إلى ما أصاب فيه منتج الخطاب من حسن، و ما تورّط فيه من قبح وبمرور الزّمن أدّى الاهتمام بتفسير الخطاب إلى قواعد و قوانين تهديه إلى الصّواب و الحسن و تجنّبه الخطأ والقبح، تجلّى ذلك في أبواب علم البلاغة."(11)

وتركّز أيضا إشكالية اللّفظ مع معناه حول المستوى الأفقي التي عالجت صيغ المعنى بعلاقة الخطاب وبعقل الإنسان،"و أن الذين خاضوا هذه المسألة بعمق وتفصيل كانوا أساسا من المتكلّمين البلاغيين أعني المتكلّمين الذين كانت تستهويهم المناقشات حول مقوّمات البلاغة والبيان أكثر ممّا كانت تجذبهم المناقشات حول المسائل الميتافيزيقيّة."(12)

المنارة للاستشارات

فهذه الثّنائية لها تاريخ عريق متطوّر عبر الزمن و علاقتها بعقل الإنسان و فكره هذا الأخير الذي نتحدّث عنه:" هو الفكر بوصفه أداة للإنتاج النظري صنعتها ثقافة معيّنة لها خصوصيتها هي الثّقافة العربيّة بالذّات، الثّقافة التي تحمل معها تاريخ العرب الحضاري العام و تعكس واقعهم أو تعبر عنه وعن طموحاتهم المستقبلية كما تحمل و تعكس و تعبّر في ذات الوقت عن عوائق تقدّمهم و أسباب تخلّفهم الرّاهن."[13]

ففكر الإنسان هو أصل الدّراسة و البحث في الزوج(اللّفظ و المعنى) و غيره من القضايا النّقدية التي تمسّ النّص الأدبي." فالمتكلّم الذي كان مشغولا ببيان وجوه إعجاز القرآن داخل الدائرة البيانية و لفائدتها، كان عليه أنّ يكون على معرفة بالأساليب البلاغيّة العربيّة متذوّقا لها كما أنّ البلاغي أو النّاقد الأدبي الذي كان مهتما بتحليل مظاهر البلاغة و آلياتها في الخطاب العربيّ كان عليه أن يعتمد القرآن كسلطة مرجعية لكونه يمثّل بنظمه و طرق تعبيره أعلى مراتب البيان العربي."[14]

يتبين من هذا أنّ: على أنّ النّاقد الأدبي عندما يعالج أي دراسة نقديّة حول نظرية البيان، من الأفضل له أن يعتمد نظم القرآن الكريم باعتباره أبلغ النصوص الأدبيّة." و يعكس أبو حيان التّوحيدي الذي كان مرآة عصره في المجال الثّقافي هذا الاتّجاه نحو اعتبار كل من اللّفظ والمعنى في العمليّة البيانيّة البلاغيّة يقول:"و من استشار الرأي الصّحيح في هذه الصّناعة الشّريفة علم أنّه إلى سلاسة الطبع أحوج منه إلى مغالبة اللفظ، وأنّه متى فاته اللّفظ الحر لم يظفر بالمعنى الحر لأنّه متى نظم معنى حرا ولفظا عبدا أو معنى عبدا و لفظا حرّا فقد جمع بين متنافرين بالجوهر و متناقضين بالعنصر."[15]

يتضح من كلام التوحيدي أنّ: الصّناعة اللّفظية تتطلّب أن يكون اللّفظ عبدا للمعنى أي يخدمه على أحسن وجه و يلائمه و أن يكون المعنى كذلك عبدا للفظ يخدم بين الطرفين تحصل البلاغة التي نريدها، ويظهر البيان الذي نسعى إلى تحقيقه، يقول:" و هذا لأنّ المعاني ليست في جهة والألفاظ في جهة بل هي متمازجة متناسبة والصّحة عليها وقف."[16] هنا لا يفصل التوحيدي بين اللّفظ و المعنى و يجعل الصّحة في النّص والبلاغة تكون وقفا عليهما الاثنين أي اللّفظ والمعنى فهما متناسبان من أجل البلاغة والبيان، و" لأنّ حقائق المعاني لا تثبت إلا بحقائق الألفاظ فإذا تحرفت المعاني فكذلك تتزيف الألفاظ فالألفاظ و المعاني متلاحمة متواشجة متناسجة."[17]

المنارة للاستشارات
ww

في هذا القول يؤكّد التوحيدي أنّ الألفاظ و المعاني متناسجة، أي يحدث النسج بينهما و لا يمكن أن نفهم بأنّ النسج يحدث بين الألفاظ فقط بل يحدث بين الألفاظ فيما بينها و مع معانيها ويؤكّد هذا الكلام بقوله: " وينبغي أن يكون الغرض الأوّل في صحّة المعنى و الغرض الثّاني في تخيير اللّفظ و الغرض الثّالث في تسهيل اللّفظ وحلاوة التّأليف... فخير الكلام على هذا التّصفّح و التّحصيل، ما أيّده العقل بالحقيقة وساعده اللّفظ بالرّقة... يجمع لك بين الصّحة والبهجة و التّمام. فأما صحّته فمن جهة شهادة العقل بالصّواب وأمّا بهجته فمن جهة جوهر اللّفظ و اعتدال القسمة و أمّا تمامه فمن جهة النّظم الذي يستعير في النّفس شغفها ويستثير من الرّوح كلفها."(18)

فثنائية اللفظ والمعنى تنتج الخطاب،وهذا الأخير مصدره العقل،فالإنسان يُفكر ثم يترجم هذا التّفكير باللّفظ المتخير الذي يؤدي المعنى المقصود وفق نسج ملائم يوافق العقل.والحق أنّ " تحليلات القاضي عبد الجبّار في هذا المجال (اللّفظ والمعنى) تخطو بنا خطوة هائلة وحاسمه نحو نظريّة النّظم الجرجانية و ذلك إلى درجة يصعب معها نسبة شيء آخر للجرجاني غير شرح الفكرة و تحليلاها و إغنائها بالأمثلة."(19)

نفهم من هذا أن عبد القاهر الجرجاني لم يكن هو الأوّل الذي عالج نظرية النّظم، بل عُولجت من قبله، لكنّه توسع فيها كثيرا بالدراسة و التّحليل حتى نُسبت إليه بعدما قضى على الجدل الذي دار حول اللّفظ والمعنى بأنّ كل واحد يُكمل الآخر،يقول القاضي عبد الجبار: " أعلم أنّ الفصاحة لا تظهر في إفراد الكلام و إنّما تظهر في الكلام بالضّم على طريقة مخصوصة، و لابدّ من الضّم من أن يكون لكلّ كلمة صفة و قد يجوز في هذه الصّفة أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضّم وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه وقد تكون بالموقع وليس لهذه الأقسام رابع، لأنّه إما نعتبر فيه الكلمة أو حركاتها أو موقعها ولابدّ من هذا الاعتبار في كل كلمة.ثم لابد من اعتبار مثله في الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض، لأنه قد يكون لها عند الانضمام صفة وكذلك لكيفية إعرابها وحركاتها وموقعها، فعلى هذا الوجه الذي ذكرناه إنّما تظهر مزية الفصاحة بهذه الوجوه دون ما عداها."(20)

يتضح من هذا أن القاضي عبد الجبّار تطرّق إلى مسألة النّظم في البيان العربي وأنّ الفصاحة لا تكون في الألفاظ المفردة و إنّما تظهر في ضم الكلمات لبعضها البعض، و أنّ هذا الضم يقتضي

المنارة للاستشارات

معان النّحو العربي وحركات الكلمات، فهذا الضم يعطي صفة للكلام و عند هذه الصّفة تظهر مزيّة الفصاحة.

وينطلق (السّكاكي) " في دراسته لنظام الخطاب من علم الصّرف باعتباره يتناول(المفرد) من الكلام، أي وحدات الخطاب الأوليّة. فالكلمة حسب تعبيره هي اللّفظة الموضوعة" للمعنى مفردة، و المراد بالإفراد أنّها بمجموعها وضعت لذلك المعنى دفعة واحدة، وموضوع علم الصّرف هو: (تتّبع اعتبارات الواضع في وضعه للّغة، والمقصود بـ (وضع) اللّغة عند السّكاكي ليس خلقها أو اختراعها أو المواضعة عليها بل المقصود جمعها وضبطها."[21]يقول: " لا يخفى عليك أنّ وضع اللّغة ليس إلا تحصيل أشياء منتشرة تحت الضّبط."[22] فنظام الخطاب يقوم على وحدات الخطاب التي نقصد بها الكلمات المفردة الأولية.

و لا يتوقف السكاكي في تحليله لعلوم البلاغة الثلاثة، بل يعمل على ربط الصلة بين نظام العقل و نظام الخطاب و يتعمق في تحليله، يقول:" وإذ قد تحقّقت أنّ علم المعاني والبيان هو معرفة خواص تراكيب الكلام ومعرفة صياغات المعاني للتّوصل بها إلى توفية مقامات الكلام بحسب ما يفي به قوّة ذكائك، وعندك علم أنّ مقام الاستدلال بالنّسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها و شعبة فردة من دوحتها علمتَ أن تتّبع تراكيب الكلام الاستدلالي ومعرفة خواصها ممّا يلزم صاحب علم المعاني و البيان."[23]

نستشف من هذا أنّ البيان العربي لا ينحصر فقط في صياغة الألفاظ بل يتركز حول صياغة المعاني أيضا كما يوضّح السّكاكي، هذه" من قضايا النّقد و الإبداع فرضت نفسها على السّاحة الثّقافية لما يقرب من ربع قرن، الآن باعتبارها أبرز مجالات التّأثر الكامل بالحداثة الغربيّة و ما بعدها، بل النّقل عنها في أحيان كثيرة."[24]

ينبغي أن يخضع لنظام العقل و التّفكير حتى يتجنب التناقض:" هذا الاهتمام بنظام الخطاب على حساب نظام العقل قد ترتّب عنه جملة أمور منها الانشغال و الاهتمام بتجنّب التنافر بين الكلمات على حساب الاهتمام بتجنّب التّناقض بين الأفكار.إن التّناقض على صعيد الفكر لا ينظر إليه في هذه الحالة (تناقض) بل كطريقة من طرق (صياغات المعاني) أو سبيل من سبل (إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة) أو كمظهر من مظاهر(الإعجاز) البلاغي، و في جميع الأحوال فالتّناقض على صعيد المعاني يجد دوما حلّه في إعادة ترتيب العلاقات داخل نظام الخطاب وذلك هو التّأويل."[25]ويقصد بقراءة النّص من كل الجوانب من حيث المعنى ومعنى المعنى وتفكيك

المنارة للاستشارات

ww

شفراته وكشف غموضه، فمهمة التأويل هي فهم النص و التفاعل معه لإنتاج نصوص أخرى، فالنص في منظور فن التأويل هو إمكان إعادة إنتاج لمختلف المعارف والمفاهيم الإنسانية عن طريق الممارسة العلمية المنظمة المضبوطة التي تؤدي إلى صياغة أفكار جديدة.

5 -الصّناعة اللّفظيّة في نظر بعض النقاد:

تعتبر عملية تأليف النّص الأدبي صناعة و صانعها الأديب الذي يغوص في بحر الألفاظ والمعاني ليقتني منها ما يناسبه في هذه الصناعة، التي لا تكون في متناول جميع الناس و" توجد طريقتان مختلفتان للتحدّث باللّغة: مكتوبة و شفهيّة، إذ نستطيع من جهة إثارة مظهرها الفيزيقي خصائصها المميّزة القابلة للقياس كالارتفاع والمدّة و كثافة الأصوات أو حدتها... و تسمّى هذه بالبنية السّطحية... و يوجد من جهة أخرى جزء من اللّغة ليس ملاحظا و لا قابلا للقياس(المعنى)، و نستطيع أن نسمّيه البنية العميقة، إنّ المعنى لا يطفو على سطح اللّغة وإنّما يوجد في ذهن مستعمل اللّغة الّذي يتحدّث أو يكتب و الذي يسمع أو يقرأ."[26]

فاللّغة بصفة عامّة تكون في مظهرين منطوقا و مكتوبا فالأوّل لم يدوّن في حين الثّاني يدوّن ويستعمل الإنسان ألفاظا ينسجها كما يريد و على حساب خبرته و دربته و مهارته فيها، لذلك نلاحظ تباينا واختلافا بين كل متحدّث باللّغة، و لكن مع مرور الزّمن واهتمام النّقاد باللّغة ووظائفها أدركوا أنّ تأليف الكلام أو النّصّ يخضع للصّناعة اللّفظيّة فهو يشبه سائر الصّناعات و كلما كانت الصناعة جيّدة ودقيقة كان الكلام الشّفهي أو المكتوب على أحسن وجه وعلى أفضل تأثيرا في المتلقّي، و تكتسب هذه الصّناعة بمحاكاة الأدباء و النّقاد والبلغاء والاستفادة من خبراتهم في نقدهم للنّصوص الأدبية، و السّير على خطى النّصوص الرّاقية التي يشهد لها النّقاد، و تنقسم الصّناعة اللّفظيّة إلى قسمين: قسم يهتمّ باللّفظة المفردة و قسم آخر يهتمّ باللّفظة المركّبة و كيف يتمّ اختيارها من المعجم.

يقول ابن الأثير:" اعلم أنّه يحتاج صاحب هذه الصّناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء، الأوّل منها: اختيار الألفاظ المفردة، و حكم ذلك حكم اللآلئ المبدّدة، فإنّها تُتخيّر و تُنتقى قبل النّظم والثّاني: نظم كل كلمة مع أختها في المشاركة لها : لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه وحكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منه بأختها المشاكلة لها، و الثّالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه."[27]

المنارة للاستشارات

يبيّن ابن الأثير في قوله هذا أنّ الذي يريد صناعة الكلام بأيّ لغة كانت يحتاج إلى ثلاثة أشياء مهمّة لا يمكن أن نستغني عنها وإلا جاء كلامنا ركيك الأداء لا يُشفى غليل المتلقّي وبالتّالي سيردّ على صاحبه، فالأوّل منها هو اختيار اللّفظة قبل تركيبها فالألفاظ تختلف في فصاحتها وقوّة معناها فالصّانع يجب أن يتخيّرها على أحسن وجه من معجمه اللّفظي قبل التّأليف ثمّ بعد ذلك يختار الألفاظ التي تتلاءم و تتشاكل في التّرتيب و تنسجم، لأنّ هناك ألفاظا تتجاذب فيما بينها و أخرى تتنافر فيبتعد عن الألفاظ التي يحدث بينها التضارب الذي سيؤدّي حتما إلى فساد المعنى المراد من هذا التّأليف، فالمعنى هو نتاج التّأليف و هذا لا جدال فيه، فمتى صحّ التّأليف و قُوّيّ صحّ المعنى و برز، وأدّى المؤلّف ما يريد إيصاله لغيره من المتلقّين، هذا مع مراعاة الغرض المقصود من الكلام، فلكل غرض ألفاظ تناسبه فالهجاء له ألفاظ خاصّة والمدح و الرّثاء كذلك.

إن عملية الصّناعة اللّفظية معقّدة، و لا يقصد بها الصّعوبة إنّما يقصد بذلك أنّها عملية تتدخّل فيها عدّة عوامل التي سبق شرحها، هذه العوامل يجب أن يضعها المؤلّف نصب عينيه و إلا ضاع في بحر الكلام، " فالأوّل و الثّاني من هذه الثلاثة المذكورة هما المراد بالفصاحة، والثلاثة بجملتها هي المراد بالبلاغة وهذا الموضع يَضلُّ في سلوك طريقة العلماء بصناعة صوغ الكلام من النّظم والنّثر فكيف الجُهّال الذين لم تنفحهم رائحة، و من الذي يؤتيه الله فطرة ناصعة، يكاد زيتها يضيء و لو لم تمسسه نار حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ، فيضعها في مواضعها."(28)

يفهم من هذا الكلام أنّ العلماء و الأدباء ذوو مستوى عال يسيرون على هذا النّهج في اختيار الألفاظ و رصفها بكلّ عناية و اهتمام، فابن الأثير هنا كأنّه يحفز العوام أو كما سماهم الجُهّال أن يتّبعوا هذا المنهج من أجل تحسين صناعتهم اللّفظية فهو ضروري لكلّ فئات الكُتّاب دون استثناء و مع ذلك نلحظ تباينا في الصّناعات اللّفظية، عندئذ نطلق العبارات صانع ماهر و آخر دون ذلك، وهذه الصناعة "شجعت على ظهور طرائق جديدة في التواصل الأدبي، يدخل تحتها يسمى بالوظيفة المزدوجة للغة: الوظيفة الايصالية والوظيفة الجمالية."(29)فالوظيفة الأولى تكمن في إبلاغ المعنى من المرسل إلى المتلقي، في حين الوظيفة الثانية في جمالية النص عندما يؤثر في نفسية المتلقي.

يقول ابن الأثير: " و من عجيب ذلك أنّك ترى لفظتين تدلاّن على معنى واحد، و كلاهما حسن في الاستعمال، و هما على وزن واحد و عدّة واحدة، إلا أنّه لا يحسن استعمال هذه في كلّ موضع

المنارة للاستشارات

تستعمل فيه هذه، بل يفرّق بينهما في مواضع السّبك."[30] يوضّح ابن الأثير في هذا الموضع أنّنا نجد لفظتين أو أكثر لها معنى واحد، و على وزن واحد و ظاهرهما حسن، إلا أنّهما في واقع الصّناعة اللّفظية كل واحدة لها موضعها و لا يمكن أن نزحزحها عنه، فالمؤلّف القليل الدربة و المران تظهر له هذه الألفاظ بنفس المرتبة و المعنى و أنّ كل واحدة يمكن أن تحلّ محل الأخرى و هذا غير صحيح فلا يفرّق بين مواضع هذه الألفاظ إلا البارع في التّأليف وهذا من عجائب الألفاظ و مواضعها " فمن ذلك قوله تعالى:(مَا جَعَلَ اللّه لِرَجُل مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ)(**الأحزاب/4**)وقوله تعالى:(رَبّ إِنّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرّرًا) (**آل عمران/35**).

فاستعمل (الجوف) في الأولى، و (البطن) في الثّانية، ولم يستعمل (الجوف) موضع(البطن)، و لا (البطن) موضع (الجوف)، و اللّفظتان سواء في الدّلالة، و هما ثلاثيتان في عدد الحروف، ووزنهما واحد أيضا فانظر إلى سبك الألفاظ كيف تفعل."[31]وهذه العلامات من مظاهر الإعجاز القرآني و بلاغته، التي عجز عن تأليف مثلها كل مخلوق أمام قدرته الإلهية العجيبة، وكل العلماء يشهدون بذلك." ممّا يجرى هذا المجرى قوله تعالى(مَا كَذبَ الفُؤادُ مَا رَأَى) (سورة **النجم/11**)، و قوله تعالى (إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) سورة (**ق/37**)،فالقلب و الفؤاد سواء في الدّلالة، و إنّ كانا مختلفين في الوزن و لم يستعمل في القرآن أحدهما في موضع آخر."[32]

ثمّ يبيّن ابن الأثير أنّ: التّفاضل في الصّناعة الشعرية يقع في التّركيب ولا يقع في مفردات الكلام و يؤكّد هذا بقوله: "و اعلم أنّ تفاوت التّفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر ممّا يقع في مفرداتها، لأنّ التّركيب أعسر وأشقّ."[33] ألا ترى "ألفاظ القرآن الكريم ـ من حيث انفرادها ـ قد استعملتها العرب و من بعدهم، و مع ذلك فإنّه يفوق جميع كلامهم و يعلو عليه و ليس ذلك إلا لفضيلة التّركيب."[34] فأغلب الألفاظ التي نستعملها في كلامنا أو نسمعها من غيرنا نعرف معناها، لكن توظيفنا لها يختلف وهذا ما لاحظناه في القرآن الكريم من قوّة النّسج و البلاغة التي هي" إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللّفظ"[35]أي أنها تحدث تأثيرنفسي في أحسن أسلوب.

6- خاتمة:

احتلّ الشّعر عند العرب مكانة رفيعة كانت العامل الرئيس في ظهور القضايا النّقدية التي تهدف إلى خدمة النّص الأدبي، فالنّقد موضوعه الأدب، ووظيفته تجويد هذا الأدب و تطويره

المنارة للاستشارات
ww

وتذوّق ما فيه من القيم الفنيّة والجماليّة، التي ترتكز أساسا على قضية اللّفظ والمعنى عبر العصور المتلاحقة.

غير أنّ ثنائيّة اللّفظ والمعنى اشتدّت العناية بها في القرنين الثّالث والرّابع الهجريين، وكان المحفز لها هي فكرة الإعجاز في القرآن الكريم، فظهرت آراء عديدة حولها في العصر العباسي من قبل النقاد، فمنهم من يتعصب للفظ و يُدافع عنه، ومنهم من يتعصب للمعنى ويجعله قمة البلاغة، وهناك من حاول التوفيق بين الرأي الأول و الثاني، مع العلم أن هذه الإشكالية ليست عربية قديمة، بل كان لها حضور في الفكر اليوناني عند كل من أفلاطون وأرسطو.

المنارة للاستشارات

ww

7- الإحــالات و الهــوامــش:

(1) عبد العزيز عتيق . في النّقد الأدبي . دار النّهضة العربيّة . بيروت . لبنان . ط2 . 1972 . ص42.

(2) نفسه . ص56 و 57.

(3) عبد العزيز عتيق . في النقد الأدبي . ص263.

(4) سعاد بنت فريح بن صالح الثقفي . النّقد الأدبي و مصادره في كتاب الموشح للمرزباني . أطروحة دكتوراه . إشراف: محمّد بن مريسي الحارثي . 2009 . جامعة أم القرى . السّعودية . ص2.

(5) عبد العزيز عتيق . في النقد الأدبي . ص268.

(6) أحمد أمين . النّقد الأدبي . مؤسسة هنداوي للتّعليم و الثّقافة . القاهرة . مصر . ص14.

(7) عبد العزيز عتيق . في النّقد الأدبي . ص268.

(8) نفسه . ص268.

(9) ابن قتيبة- عيون الأخبار -ج1-شرح: يوسف علي طويل-دار الكتب العلمية.لبنان.دت- دط- ص355.

(10) محمّد عابد الجابري . بنية العقل العربي . دراسة تحليليّة نقديّة لنظم المعرفة في الثّقافة العربيّة . مركز دراسات الوحدة العربيّة . ط9 . بيروت . لبنان . 2009. . ص75.

(11) نفسه ،ص75.

(12) نقلا عن: عبد الخالق فرحان شاهين . أصول المعايير النصّية في التراث النّقدي و البلاغي عند العرب . رسالة ماجستير. إشراف: عقيل عبد الزهرة مبرر . 2012 . جامعة الكوفة . العراق . ص130.

(13) محمّد عابد الجابري . بنية العقل العربي . ص76.

(14) محمد عابد الجابري . تكوين العقل العربي . مركز دراسات الوحدة العربية . جماعة الدّراسات العربيّة . التّاريخ والمجتمع . بيروت . لبنان . ط10 . 2009 . ص13 و 14.

(15) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص77.

(16) نقلا عن :محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي ، ص80.

(17) أبو حيان علي بن محمد التوحيدي، البصائر و الذخائر، تحقيق إبراهيم الكيلاني، دمشق، مطبعة أطلس و مطبعة الإنشاء،1964،ج3، ص49.

(18) نفسه ،ج2، ص92.

(19) محمّد عابد الجابري . بنية العقل العربي . ص80.

(20) عبد الجبار بن أحمد أبو الحسن(القاضي) ، المغني في أبواب التوحيد و العدل، وزارة الثقافة و الإرشاد 1961.1960ج16، ص199و200.

(21) نفسه ، ص199و200.

(22) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي ، ص92.

(23) أبو يعقوب السكاكي، مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، دت، بيروت، نسخة مصورة ،ص38.

(24) نفسه ، 182.

(25) عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، نحو نظرية نقدية عربية، عالم المعرفة، مطابع الكويت، 2001، ص87.

المنارة للاستشارات
ww

(26)محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص107 و108.

(27) لحسن بوتكلاوي . تدريس النّص الأدبي من البنية إلى التّفاعل . تقديم محمد خطابي . إفريقيا الشّرق . المغرب . ص78. (28) ابن الأثير. المثل السّائر في أدب الكاتب و الشّاعر. تحقيق: أحمد الحوفي و بدوي طبانة . ج1 . ط2 . دار الرفاعي . الرّياض . السعوديّة . ص163.

(28) ابن الأثير، المثل السائر، ص164.

(29)لاحليمة بلوافي، النقد اللغوي القديم، دراسة في الأدوات و المنهج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971،ص147.

(30) ابن الأثير، المثل السائر، ص164.

(31) نفسه ، ص164.

(32)ابن الأثير، المثل السائر، ص164.

(33) نفسه ، ص166.

(34) نفسه ، ص166.

(35) عبد القادر عبد الله فتحي الحمداني، البلاغة القرآنية في نكت الرماني، دار غيداء، عمان ، الأردن ،ط1، 2014،ص20.

المنارة للاستشارات

ww